كيف نتحرر من غرائز الشر ؟

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

يخيل الينا أحيانا أن غرائز الشر من الصفات الكامنة فى طبيعة الحيوان دون الانسان ، ومع ذلك إذا أمكننا أن نخلو لأنفسنا فى وقت ما كى نحاسبها على نزواتها أمام العقل والواقع أدركنا بغير عناء مدى نزوع كل منا إلى غريزة خاصة فى ناحية خاصة من الحياة ، تسىء إلى الانسانية بقدر ما تسىء إلى الشخص نفسه ، فتظهر عند البعض كنقائص دائمة بسببها ضعف التهذيب الخلق الذى يحط بالانسان فيعود به إلى عهد الهمجية والتوحش ، وتستتر عند البعض الآخر ممن صقلتهم المعرفة وسمت بأرواحهم وراء أقنعة من المظاهر والتقاليد .

وقد أجمعت الظواهر على أن الانسان ولد ومعه غريزة الشر ، فنحن نرى الطفل الصغير يلهو بلعبته التى يحبها وهو مسرور بها ثم لا يلبث أن يحطمها بحركة غريزية لاشعورية ، ونراه أيضا يداعب قطته الجميلة ، فاذا به يحاول أن يخنقها بيديه الصغيرتين . وفى هذين المثالين على بساطتهما ما يدلنا على وجود غريزة الهدم عند الأطفال بالفطرة .

ومهما اختلف العلماء فى أصل غريزة الشر وهل هى موجودة فى الانسان منذ وجوده أو حادثة عليه تتأصل فيه من الحياة المادية ، ولا تجد من يبعدها عنه أو يجترها منه ، فقد اتفقوا ضمنا على أن هناك أناسا يخضعون لغرائز الشر فى حياتهم ، كما أثبت الطب الحديث أن فى الانسان غدة تسمى (الغدة الادرينالينية) أو فوق الكلى أو الغدة التاجية . وهذه الغدة تفرز فى حالة الغضب مادة تسمى (الادرينالين) فتنشط الدم وتحفز الشخص وتكسبه قوة أكثر من قوته العادية .

وفى نفس الوقت تكبر وتنمو ومع نموها يصبح الانسان أكثر استعدادا للغضب ، فيثيره أقل الأشياء وأتفهها ، وتتخذ هذه الحالة شكلا اجراميا لمن كان ضعيف الارادة فيصبح شريرا ومن هنا ينشأ الاجرام .

وغرائز الشر كثيرة متعددة ، منها المحدودة الضرر التي تعود نتائجها غالبا على الفرد نفسه ، ومنها اللامحدودة التي تتعدى الفرد الى المجموع حيث يصير خطرها عظيما ، ونتائجها مخيفة .

فالتشاؤم ، والجبن ، واليأس ، والخجل ، والغضب ، والانغماس في الملذات من الغرائز المحدودة الضرر .

وغريزة التشاؤم ضعف خلقي يتولد عادة في النفس أثر صدمات متلاحقة تصيب شخصا ضعيف الارادة فتحطم روحه وتزعزع عقائده .

وهذه الغريزة اذا أصابت أمة عجزت عن الرقي، ولم تتقدم خطوة في مضمار الحضارة. ومن المصلحين قوم ينصبون أنفسهم دعاة للإصلاح وفي الوقت نفسه يسرفون في التشاؤم اسرافا عجيبا يقطع معه كل أمل في الاصلاح والتقدم . واذا سرت هذه الروح في جسم الأمة ثبطت عزائم أبنائها وقعدت بهم عن السعي في سبيل التقدم ، وفقدوا الأمل فقدانا لايترك معه متنفسا للرقي، فيؤدي هذا حتما الى انكارهم حقائق الحياة والى سيطرة الأوهام الفاسدة عليهم، وينشأ عن هذا الخوف والجبن .

وغريزة الجبن نتيجة حتمية لغريزة التشاؤم ، فالمتشائم الذي كست الأوهام أفكاره بسواد ألوانها لايمكن مطلقا أن يتقدم على مواجهة صعاب الحياة بنفس فرحة مطمئنة ، ولذلك يقف حين يجب عليه أن يتقدم ، ويبطئ حين يجب عليه أن يسرع ، تهزه أقل الحركات ، وتنغص عيشه أبسط العقبات . ورب لحظة تردد قد تضيع عليه فرصة ذهبية ربما كان لها أثر كبير في بناء مستقبله ، وتكوين حياته كفرد ناجح في الحياة .

كذلك اليأس فهو صاحب للجبن والتشاؤم، فمن تشاءم من شيء وجبن عن مواجهته تولدت في نفسه عوامل اليأس من الحياة ومن احتمال مشقاتها والنضال في سبيل العيش ، فتخور عزيمته ويؤثر أن يتخلص من حياته بالانتحار، وبفقده تفقد الأمة عضوا كان يمكنه بالقليل من الرويّة والتبصر أن يساهم في رقيها وسلامتها .

أما الخجل فهو غريزة تتولد مع الطفل في طوره الأول عند مايجاهر بأفكاره الساذجة المحدودة فيصطدم فيها من أهله وأقاربه الذين يظنون أن التربية معناها جهل الطفل بكل مايحيطه حتى يبلغ بهم الأمر الى إيذائه ، فيقعد عن إبداء آرائه خشية أن يصطدم فيها ، ويتعود على ذلك حتى تقوى فيه غريزة الخجل وتحل في نفسه محلا يؤثّر في أكثر الأحيان على حياته العملية .

وقد علمت أن كاتبا كبيرا مشهورا بالخجل قد بلغ به ذلك الخجل مبلغا لم يمكّنه ذات مرة من مخاطبة الجمهور خمس دقائق من وراء المذياع إلا وكان يتصبب عرقا ويرتعد رعبا وخوفا ، وهذا النقص سببه ولا شك القسوة التي عاناها إبان تربيته .

أما غريزة الغضب فهي غريزة تشترك مع الغرائز المحدودة وغير المحدودة الضرر ، فقد تكون قاصرة على الشخص نفسه فلا تمتد الى غيره ، وقد تحمله على ارتكاب الجرائم والانتقام وإرواء الغليل وقديما قالوا : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب .

وغريزة الغضب كغريزة الخوف يثيرها حدوث أمر غير منتظر لا علاقة له بالميول ولا صلة بينه وبين المعاني التي تفرغ لها الذهن ، ويخالفها في أن الخوف يحمل المرء على الفرار ، أما الغضب فيفضي به الى التحرش والهجوم .

ولا شك أن الغدة الادرينالينية التي عناها الطب في تحديد أسباب غرائز الشر لا تؤدي مهمتها إلا ساعة الغضب ، وهي كما قلنا تعطي الجسم قوة تحفزه للفتك كالوحش الكاسر ساعة الافتراس .

وقد شبّه بعضهم الغضب بالأفعى ذات الملمس اللين إذا بطشت غدرت ، وكالقوة الغاشمة إذا حكمت ظلمت ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم على من استوصاه بنصيحته الثمينة فقال له : لا تغضب .

ومما قرأته عن الامام علي كرم الله وجهه أنه كان يحارب في إحدى المواقع وكان أحد الكفار قد آذى النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان يسفّه دعوته ، وينال من رسالته ، فوقع في تلك الحرب تحت يد علي بن أبي طالب فطرحه أرضا وكاد يقضي عليه لولا أن الرجل بصق في وجه الإمام علي ، فقام الامام عنه وخلى سبيله . فسئل : لم عفوت عن عدو الله لا سيما وقد بصق في وجهك؟ فقال : "خفت إن قتلته أن يقال عني إني قتلته بعد أن أغضبني وتفل في وجهي ، ولا يقال إني قتلته جهادا في سبيل الله" . . . ولكن كم فينا من هم مثل ابن أبي طالب رحمه الله يمكنهم أن يتسامحوا في حقوقهم والاعتداء عليهم ومقابلة الإساءة بالإحسان ؟

وبما أن الكلام عن الغضب قد ساقنا حتما إلى الغرائز غير المحدودة الضرر فسنتكلم عن باقي تلك الغرائز وهي حب النفس والسرقة والقتل وروح الهدم .

فغريزة حب النفس أو الأثرة غريزة خطرة تقود صاحبها حتما إلى الاجرام ، فقد تعوّد أن يرى الأشياء مملوكة له ولذلك فهو يريد دائما أن يحصل على كل ما يطلب ويشتهي ،

ولن تقف فى سبيله أى عقبة ما دامت روحه الجشعة قد تشبعت بشرور الأنانية وحب النفس ولسوف يتخطاها مهما كانت نتائجها وخيمة ، ووسائلها تتعارض مع مقتضيات الشرف والفضيلة .

وكثيرا ما أدّت غريزة حب النفس إلى ارتكاب أعظم الجرائم الأخلاقية كذلك إلى القتل والسرقة .

وغريزة القتل كما نعرف جميعا من أخطر الغرائز الإجرامية اللامحدودة الضرر ، وأصحابها يتشابهون كثيرا مع أصحاب غريزة الهدم ولكنهم يفوقونهم فى نقص الوازع الدينى .

فهم إما يقتلون لحب سفك الدماء تحت تأثير أمراض عصبية ، وإما تبعا للبيئة التى تحيط بهم ، ومن هؤلاء أهالى الصعيد الذين يتساهلون فى ارتكاب تلك الجريمة وكأنها شىء عادى لديهم يثيره أبسط الأشياء وأتفهها . وكم من جرائم قتل ترتكب هناك باسم الأخذ بالثار وسرقة كوز من الذرة أو حفنة من القمح .

أما روح الهدم فهى غريزة متفشية عندنا بين الكبار والصغار وترجع مسبباتها أيضا إلى الأمراض العصبية ، كذلك إلى البيئة والوسط كما ترجع إلى بعض العقائد التى يعتقدها بعض المفكرين من أن الهدم وسيلة من وسائل البحث عن الحقيقة وأشهر هؤلاء "بول بورجيه" وأفكاره فى ذلك مجسمة فى روايته "التلميذ" .

وغريزة الهدم من الغرائز الخطرة المؤذية ، فصاحبها ميال دائما إلى هدم ما يراه قويا ، وتشويه ما يراه جميلا . وليس أدل على ذلك من محاربة بعض الناس دائما لصغار الأدباء والشعراء الذين يتجرأون يوما على إظهار بعض ثمرات قرائحهم التى غالبا ما تكون ناضجة طيبة ، ومع ذلك يأبى هؤلاء إلا تشويهها وتحطيمها ، فتنشط الأقلام وتتكاتف ضد تلك القرائح الفتية حتى تثبط هممهم وتميت عزائمهم .

وهؤلاء يتساوون فى نظرى مع من نراه جالسا فى السيارات العامة وبيده مشرط أو مطواة يمزق بها أغطية المقاعد ، أو أولئك الأطفال الذين يلقون الأحجار فى أوقات لعبهم على نوافذ الدور الآمنة ليحطموا زجاجها .

والأمثلة على غريزة الهدم كثيرة وأصحابها يتساوون فى طباعهم سواء فى ذلك الرجال والأطفال والنساء .

وها كم دليلا ملموسا يؤيد وجود هذه الغريزة فى النساء أيضا ، فقد زارنا من شهور بعض الزوار بينهن آنسة تبدو عليها العصبية وحدة الطبع ، ظلت طيلة مدة جلوسها تنبش

فى أحد مقاعد الصالون بأظافرها الطويلة حتى أحدثت فيه تشويها ظاهرا، وكنت ألاحظها مغيظة متعجبة ومع ذلك لم أملك أن أمنعها أو أنهرها إكراما لواجب الضيافة ومراعاة لشعورها ولتأكدى من عدم إدراكها ما تفعل وهى منقادة لغريزة الهدم التى تسيطر على أعصابها .

* * *

ونخرج من هذا البحث بنتيجة ظاهرة وهى أن لفساد التربية وانحطاط البيئة أعظم الأثر إما فى إنماء غريزة الشر وإما فى تكوينها .

فلو اتبعت كل أم الطرق الصالحة فى تربية أولادها وهيأت لهم بيئة حسنة لما احتاج الأمر منا إلى كثير عناء فى القضاء على غرائز الشر والتحرر منها .

وأول ما يجب عليها أن تفعله فى هذا الأمر هو تنقية الوسط الذى يحيط بطفلها من كل ما يلوث نفسه الصغيرة من أدران الحياة، وذلك بعزله فى غرفة بعيدة على قدر المستطاع عن كل ما يدور فى محيط الأسرة من أشياء ربما كان الأفضل له ألا تنفذ إليه ، فاذا توافر له ذلك ظلت هناك عقبة تكوينه وتربيته، فكثير من الأمهات يعتمدن فى تربية أولادهن على الخدم والمربيات، ومع ذلك فقد ظهر عقم تلك الطريقة واضحا لكثير من الأسباب ، منها عدم اختيار المرأة الصالحة للقيام بتلك المهمة العظيمة، كذلك عدم إشراف الأم بذاتها على سير تلك المهمة ، فتكون النتيجة أن يتعود الطفل على أخلاق خادمته أو مربيته ، ويتشبع بسيىء غرائزها ، فتفشل كل الاحتياطات التى أردنا بها أن نهذب غرائز الشر فيه ، إذا كانت وراثية ، أو القضاء عليها إن كانت عارضة .

وأرى فى ذلك أن تتولى الأم بنفسها القيام بتربية طفلها . وليس هناك أى عار لها إذا فعلت ذلك ، بل العار كل العار أن تنجب ولدا لا تعرف كيف تكون له أما ، وأن تطالبه بعد ذلك بمحبتها، وتجبره على احترامها، وهى التى حرمته من أبسط واجبات الأمومة وأنفت أن تغمره بالقليل من رحمتها .

فاذا تم لها تخصيص غرفة له والعمل على تنقية البيئة التى تحيطه ، تكون قد قامت نحوه بالخطوة الأولى من واجباتها ، وفى مقالى الماضى "الأسرة السعيدة" كثير من العوامل التى تساعد على نجاح تلك الخطوة وأهم تلك العوامل وجود الهدوء المنزلى فى محيط الأسرة ، ووجود الذوق الفنى .

وبعد ذلك تضع الأم كل اهتمامها فى درس مدى استعداد طفلها لتفهم الأشياء ، وتقف على ميوله فتتخذ منها مقياسا للطريقة المثلى فى تربيته وتكوينه . فتبدأ فى تنمية ميوله الفاضلة، وتهذيب ميوله الشريرة بالعقل والحكمة حتى يبدأ فى تفهم الأشياء .

وبعدئذ تبث فى نفسه العقائد الدينية الفاضلة ، وتملأ قلبه الصغير بالإيمان حتى يتسنى لها توجيهه كيفما شاءت ، ثم تدأب على تربية عواطف الخير فى نفسه ، ويكون ذلك بسرد القصص المشوقة الطريفة التى تحببه فى عمل الخير والبر بالفقير والعطف عليه، والصبر والجلد والتسامح واحترام مصالح الغير، ثم تعوده الطاعة مع الاحتفاظ بالكرامة، والاقدام مع الشهامة والشرف ، وضبط النفس فى الملمات ، وتضحية الذات فى سبيل مصلحة المجموع حتى إذا ما أوشك على السابعة اشتركت المدرسة معها فى إتمام تكوينه ورسم مستقبله .

وبهذه المعونة المشتركة يشب الطفل عفيفا أبى النفس مطواعا فيسهل توجيهه دائما إلى طرق الخير والانسانية بعد أن كبحت فى نفسه غرائز الشر وتحرر من إغرائها .

هذه هى مرحلة الطفولة ولها على ما مرف كل الأثر فى تربية الشعور وتوجيه الفرد فى الحياة، فعسى أن تنشط كل الأمهات للاهتمام بتلك المرحلة كى يتحقق لنا أن نرى ذلك الجيل الجديد الذى نهفو لرؤيته ، جيل الانسان السامى المنزه عن كل ما يشين .

أما من تخطوا مرحلة الطفولة بعيدا عن أيدى المربين والرقباء، فهناك وسيلتان اتبعتهما الأمم الراقية للحد من شرورهم وتهذيب غرائزهم .

فالدول الأوروبية قد توصلت إلى علاج هؤلاء باستئصال الغدة الادرينالينية ، أما فى أمريكا فقد اهتموا بإنشاء المعاهد التى يشرف عليها نخبة من أطباء النفس والجسد، يدرسون حالة المجرمين من الصبيان الذين يلتقطونهم من الشوارع ، ثم يعملون بشتى الطرق النفسانية والجسمانية على تحريرهم من شر غرائزهم ، وتوجيههم إلى الوجهة الصالحة فى طريق الخير.

وقد كان ضمن الأفلام الأمريكية التى عرضت فى مصر فيلم اسمه (رجال مدينة الأطفال) أظهر بوضوح جهود تلك المعاهد فى سبيل تأدية رسالتها السامية ، وكيف تخلق من هؤلاء المجرمين المرضى بغرائز الشر والاجرام ، رجالا مهذبين يساهمون فى العمل على مجد وطنهم وإعلاء شأنه ، بدلا من أن يكونوا أبالسة الشر وشياطين الاجرام .

فياحبذا لو فكرنا نحن أيضا فى اتباع مثل هذه الطرق العلمية والعملية حتى يمكننا أن نوقف ما استطعنا ضرر هذا الانحدار الخلقى، فنقضى على الجريمة ونتحرر ويتحرر معنا المجتمع من شر غرائزنا .

زينب محمد حسين